لقاءات رمضان ١٤٣٤هـ

اللقاء الرابع عشر : تفسير الآيات ١٢١-١٢٨ من سورة النحل

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تُنشر في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الرابع عشر من سلسلة اللقاءات في هذا الشهر المبارك، ولازلنا نتمتَّع بفضل الله بفهم كلامه سبحانه وتعالى، وهذه نعمة يمنُّها الله على من شَاء من عباده. فنسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين على نعمائه، الراغبين إليه بالمزيد وهو سبحانه وتعالى يُحِبُّ من عباده الطمع والرجاء في رحمته، ويُحِبُّ من عباده طلب المزيد في شأن دينهم وفي شأن العِلْم، ولذلك أمَرَ نبيَّه بأن يطلب وسيتزيد ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ طه: ١١٤ فاللَّهُمَّ زِدْنا علمًا، واجعل علمنا ننتفع به، ويظهر أثره في أعمال قلوبنا وأعمال جوارحنا، ويثقِّل ميزاننا يوم أن نلقاك، نحتسب عليك ياربَّنا أن تكون هذه الساعة ساعة تنفعنا بها لما نلقاك.

ولقاؤنا اليوم بإذن الله نُناقِش فيه **موقف يُثني فيه اللهُ على خليلِه إبراهيم**، ونكون بذلك قد مررنا للمرة الثالثة على مواقف وثناء الله لإبراهيم عليه السلام.

وممَّا يتعجَّب له: أنَّ هذا الموقف في سورة النحل؛ التي خلت من القصص والأخبار عن الأنبياء، بل كانت كلّها في إظهار استحقاق الله للتوحيد بذكر نعمه وآلائه وأوصاف كماله سبحانه وتعالى، وكان الموحِّد حقَّ التوحيد هو الذي نظر إلى كمال إنعام الله عليه وإلى آلاء الله عليه، وإلى كمال صفات الله عزَّ وجلَّ التي تظهر في كل شيء، فشكر الله.

فإن **الشُّكر** هو **دليل التوحيد** ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ الإنسان: ٣ **فالشَّاكر هو** الذي وحَّد ربَّه في نسبة النعمة إليه، وكان من أثر نسبة النعمة إليه وحده أن **يشكره وحده**، أمَّا من تداخلت نفسه أمور فشتَّته عن نسبة النعمة إلى الله وحده، أو شتَّته أصلًا عن الشُّعور بالنِّعمة، أو ظنَّ أنَّه هو صاحب النِّعمة، فهذا تجد شوبًا في توحيده، وتجد ذلك أيضًا في شكره، فلمَّا تُختَم هذه السُّورة العظيمة؛ التي فيها

دلائل توحيد الله بنعمائه، وأنَّ الواجب شكره، وأنَّ الموحِّد هو الذي يشكر، لما تختم بذكر إبراهيم عليه السَّلام يدلُّ ذلك على أنَّه كان نموذجًا في التوحيد، نموذجًا في الشُّكر، وهذا يتبيَّن بوضوح من خلال الآيات.

يقول سبحانه وتعالى في ختام سورة النحل التي فيها عرض لحقائق تدفع الإنسان مباشرة إلى التوحيد:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ النحل: ١٢٠ – ١٢٨

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾

وهذه الخمس صفات من إبراهيم عليه السلام أنه:

١. أمَّة.
٢. أنَّه قانتًا لله.
٣. أنَّه حنيف.
٤. أنَّه لم يكن من المشركين.
٥. أنَّه شاكرًا لأنعمه.

وهذه الخمس صفات من إبراهيم عليه السلام قابلتها خمس عطايا من الله:

١. اجتباه.
٢. وهداه إلى صراط مستقيم.
٣. وآتيناه في الدنيا حسنة.
٤. وإنه في الآخرة لمن الصالحين.
٥. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين.

إذن من مكانته عند ربِّه: جعل نبيَّنا صلى الله عليه وسلم تابعًا له في ملَّته الحنيفيَّة ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

فإذن هذه مكانة إبراهيم عليه السَّلام عند ربِّه، هذه صفات إبراهيم عليه السَّلام، وهذا عطاء الله عزَّ وجلَّ له.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ ﴾ وسنفهم ما معنى السَّبت؟ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

يتوجَّه الأمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى كلِّ من يصلح له الخطاب ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

ربُّنا الله أعلم بمن ضلَّ عن السَّبيل وأعلم بالمهتدين، أنت ادع إلى سبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادِلهم بالتي هي أحسن، وهذا كلّه سمعته في السورة، يعني من قرأ سورة النحل علِم كيف امتنَّ الله على خلقه المؤمنين بتعليمهم كيف يعرضون التوحيد؟ كيف يُنبِّهون عليه؟ كيف يُبيِّنونه للناس؟ كيف يدعون إلى سبيل ربهم بالحِكمة؟ فيخاطبون كل قوم بما يناسبهم، وأيضًا يخاطبون الناس بالموعظة الحسنة، ويجادلون من كان الجدل في حقه طريق يوصل إلى بيان الحق، هذا ما على الخلق المهتدين المؤمنين الطائعين الداعين إلى ربهم، وهو سبحانه وتعالى أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين.

فمن أراد أن يتعلَّم كيف يدعو إلى الله فعليه بسورة النحل، هذه السُّورة تُعلِّم كيف تدعو إلى أهم المهِمَّات وهو التوحيد، وكيف تعرضه، وكيف تعظ الناس فيه، وكيف تجادلهم، فإذا أحسنت في الدعوة إلى التوحيد، فأنت فيما بعده محسن.

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ وهذا سيتبيَّن لنا علاقته بما مضى، وكيف أنَّ هؤلاء القوم الذين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم، وبيَّن لهم كيف يحصل منهم الاعتداء، والعبد في طريقه يدعو إلى الله كيف يسير، خصوصًا حال اعتداء الخلق عليه.

﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ القوم الذين ردُّوا الدَّعوة لا تحزن عليهم ولا تكن في ضيقٍ ممَّا يمكرون، هذه المشاعر الإنسانية التي تدلّ على الاهتمام تنفع صاحبها إلى حدٍّ ما، لكن بعد ذلك يُخشى على الإنسان أن يكون هذا الحزن ليس في مكانه، ومن ثمَّ يُأخِّره عن القيام بما يجب عليه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ فخُتمت هذه السورة العظيمة بالإشارة إلى معية الله عزَّ وجلَّ، التي هي غاية كل مؤمِن تيقَّن أنَّ سعادة الدنيا والآخرة وفلاحهما لا يكون إلا بأن يكون الله عزَّ وجلَّ راضيًا عن العبد معه، وسيتبيَّن لنا إن شاء الله معنى المعيَّة، وكيف هي في حق الله، وكيف هي نعمة عظيمة يسعى إليها الموحِّدون ويرجونها، يرجون أن يكون الله عزَّ وجلَّ معهم وهو مع المحسنين.

نبدأ بقراءة تفسير الشيخ السعدي رحمه الله: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾

"يُخبر تعالى عمَّا فضَّل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصَّه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة".

إذن هذا ما نعتقده أنَّ إبراهيم عليه السَّلام خليل الرحمن سبحانه وتعالى، له مرتبة الخُلَّة يُحبُّه سبحانه وتعالى، ولأنَّ الله يحبُّه فنحن نحبُّه، نتقرَّب إلى الله بِحُبِّ من يُحِبُّ سبحانه وتعالى.

يُخبر تعالى عمَّا فضَّل به خليله وخصَّه به من فضائل عالية ومناقب كاملة.

فكانت أول فضيلة:

١) "﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير هاديًا مُهتديًا".

هاديًا لغيره مُهتديًا بنفسه، وهذه الصِّفات جمعت صفات الخير كلّها، أي إمام جامع لخصال الخير، إمام فيه كلِّ صفة خير، مهتديًا بنفسه هاديًا لغيره، فالنَّاس ينظرون إلى مسلكه ويسيرون خلفه لربِّهم.

ومن صفاته العظيمة أنَّه:

٢) "﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ أي: مديمًا لطاعة ربِّه مخلصًا له الدِّين".

قائم بالطاعة دائم عليها، قانتٌ بمعنى دائمٌ على طاعة الله، والمعنى: أنَّ العبد الطائع لربِّه يُصبح قانتًا إذا أدام الطاعة، ولم يقطعها ويتركها من غير سبب صحيح، وإنَّما تركها كسلًا أو تهاونًا، وهذا كما يُقال في حقِّ الفرائض يُقال في حقِّ النوافل، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك: ((أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ))[١]، فالدوام على الأعمال يجعل من صفة الإنسان أنَّه قانتًا.

والله يُحِبُّ القانت أي: المديم على طاعة ربِّه، ويكون في هذه الإدامة مخلصًا لا يريد غير وجه الله، فإذن القانت جمع مع إخلاصه في طاعته الدوام على الطاعة.

[١] "صحيح مسلم" كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب لا كان عمله دِيمة/ ١٣٠٥.

- فإذا بلغك مثلًا خبر أنَّ المؤمن يُحافظ على الوضوء، ((لاَ يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ))[٢]، إذا بلغك هذا الخبر فلِكَي تكون قانتًا لله تديم أن تبقى دائمًا متوضئًا، فإذا وُجِد ما يُفسد وضوءك، تحرص على أن تتوضأ، فتبقى كلّ وقتك على وضوء.
- وهكذا يأتيك خبر عن السِّواك وعلى مكانته، وعلى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم حريصٌ على السِّواك، ويبيِّن مكانته لأمَّته دائمًا، فأنت تكون أيضًا ذا حرص على السِّواك، كلَّما تعلَّمت أخْلَصْت وأَدَمْت، فيكون عملك دِيمة، هذا قانتًا.

نأتي إلى **حنيفًا**، يقول:

٣) "﴿ حَنِيفًا ﴾ مُقبِلًا على الله بالمحبَّة، والإنابة والعبوديَّة مُعرضًا عمَّن سِواه".

أي في الحنيف يجتمع أمران:

١. الإعراض عمَّن سواه.
٢. الإقبال عليه.

إذن الحنيف سيميل عن غير الله، ويُقبِل على الله.

ولما يُقبِل على الله يكون هناك صفات في إقباله، يُقبِل إقبال المحِبّ، يُقبِل إقبال المنيب الذي لا يستطيع البُعد، إذا شغله شاغل أو غفل أسرع فعاد، ينيب أي: يُقبِل إقبال العبد المنكسر الذليل الذي يُحبّ أن يرضى عنه ربُّه، **فالحنيفيَّة** وصفٌ عظيمٌ فيه إقبالٌ على الله، وفيه إعراضٌ عن غيره، فلا يكون العبد من **الحنفاء** إلا إذا أعرض عن غير الله، وأقبل على الله، أقبل على الله إقبال المحِب المنيب، العبد الذَّليل الذي يرجو رضى سيِّده ومولاه، ويتقرَّب إليه بالقُرب وهو طامع في رضاه، هذه حنيفًا.

٤) "﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله لأنَّه إمام الموحِّدين الحنفاء".

فمن أقبل على الله وأعرض عمَّن سِواه، كان شديد الحرص على ألا يُشرك في قوله أو عمله أو في جميع أحواله مع الله أحدًا، فيكون شديد التحرُّز، لا يدخل في شيء لا يعرف شأنه من جهة التوحيد، فكما أنَّه مُعرض عن غيره مُقبل على ربِّه فهو شديد التحرز من الشِّرك، يخشى أن يقع في الشِّرك بصورة أو

[٢] صحيح ابن حبان.

بأخرى، وهذا الشِّرك -كما وُصف في الحديث (وجدته ضعيف)- دقيق دقة تكاد لا تراها، تلك النملة السوداء على الصفاة، على الصخرة الصماء الملساء في الليلة السوداء، فماذا سترى في الليل البهيم الأسود على صخرة صماء؟! فإذا كان المرئي هو النملة فمن اليقين أنك لا تراها.

فهذا **خطر الشِّرك**، فكان إبراهيم عليه السَّلام حنيفًا مائلًا إلى ربِّه، معرضًا عمَّن سواه، وأيضًا كان حذرًا حريصًا خائفًا من الشِّرك، ولا يختلط بأهله ﴿ وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ حذرًا من الرِّضى بأحوال أهل الشِّرك.

وهو **إمام الموحِّدين الحنفاء**، فهذا ما نعتقده فيه، وهذا ما نريده لأنفسنا.

٥) "﴿ شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِ ﴾ أي: آتاه الله في الدُّنيا حسنة، وأنعم عليه بنعمٍ ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها".

وما أعظم الشُّكر في دلالته على التوحيد، إنَّ العباد ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ الإنسان: ٣، **فالشُّكر** هو دليل التوحيد، لأن من **عَلِم أنَّ الله وحده الذي أنعم، سيشكر الله وحده المُنعِم.**

فالله عزَّ وجلَّ أنعم عليه نعمًا عظيمةً فقام هو بشُكرِها، ومن أراد أن يسير سيره فعليه أن **يُحرِّك قلبه تجاه نِعم الله**، وأن يشعُر بعظمتها، ويشعر بفقره إليها، ويشعر أنَّ ما معه من نِعم ليس كما اتفق، وإنَّما صبَّها الله عليه صبًّا، وأعطاه إياها عطيَّة، ورزقه الله إياها رزقًا، فيُمحِّض نسبة النِّعمة إلى الله، ثمَّ إذا تحرَّك قلبه بذلك، كان الواجب عليه أن يعلم أنَّه لا يحفظها عليه إلا الله، فكما أنَّه يشعر بوجودها، عليه أن يطلب من الله حفظها، فيخاف أن **يُحرم بسبب ذنوبه.**

ثم إذا فعل هذا بقلبه، لابدَّ من شُكر لسانه وجوارحه وهذا أمر معلوم، نسأل الله أن يجعلنا من الشَّاكرين.

"فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن

١- ﴿ ٱجۡتَبَىٰهُ ﴾ ربُّه واختصَّه بخلَّته، وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقرَّبين".

إذن اجتباه، اختصَّه، فالشُّكر وسيلة عظيمة من وسائل القرب الذي يلحقها اصطفاء.

٢-"﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ في عِلمِه وعَمَله، فعَلِم بالحقِّ وآثره على غيره".

وهذا من آثار الصفات التي مضت وخاصَّة الشُّكر، هداه إلى الصراط المستقيم في عِلمه وعَمله، فعلِم بالحقِّ وآثره على غيره، كما مرَّ معنا في مواقفه الماضية، وكيف أنَّه جادل من جادل من أهل الشِّرك، وكيف اجتباه ربه.

إذن **اجتباه**: هداه إلى صراط مستقيم في العلم والعمل.

٣-"﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ رزقًا واسعًا، وزوجة حسناء، وذرية صالحين، وأخلاقًا مرضيَّة".

بقي له لسان صدق في العالمين، وهذا كله من آثار ما مضى من صفات وأخصَّها التوحيد، الذي له آثار، وأعظم آثار التوحيد الشُّكر.

٤-"﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الذين لهم المنازل العالية والقرب العظيم من الله تعالى، ومن أعظم فضائله أنَّ الله أوحى لسيِّد الخلق وأكملهم أن يتبِّع ملَّة إبراهيم، ويقتدي به هو وأُمَّته".

٥-﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

ومن أعظم فضائله التي تفضَّل بها على إبراهيم، فنحن بنبيِّنا صلى الله عليه وسلم وإبراهيم مقتدون، وعلى خطاهم سائرون، ونسأل الله عزَّ وجلَّ على ذلك كله القبول وأن يجمعنا معهم في يوم الدين، فإنَّنا نحبُّهم حبًا نرجو به الدرجات العُلا، ونصلِّي ونسلِّم عليهم، ونرجو من الله أن يصلِّي علينا بصلاتنا عليهم، فإنَّنا نعلم منزلتهم ومكانتهم عند ربِّهم، فنحبّهم قربة إلى الله، نحبُّهم علَّ الله أن يجعل حبَّنا لهم سببًا لحشرنا معهم، وأن يكون حبّنا لهم سببًا لرضى ربِّنا عنَّا.

لما سمعنا خبر الخليل أتت الآيات بعده تخبر عن أصحاب السَّبت، والمقصود بهم هنا خاصَّة القوم الذين أصبح السبت عليهم فرضًا، وسنفهم ما معنى ذلك من خلال كلام الشيخ.

"يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ ﴾ أي: فرضا ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ ﴾ حين ضلُّوا عن يوم الجمعة وهم اليهود، فصار اختلافهم سببًا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله هذه الأمَّة إليه".

الحمد لله الذي هدانا وأسأل الله أن يثبِّت علينا نعماءه.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ ﴾ أي فرضاً، على الذين اختلفوا فيه حين ضلُّوا عن يوم الجمعة، والمقصود بهم هنا اليهود، الذين خيَّرهم الله في أيام العبادة، وأبرز لهم وبيَّن لهم فضيلة الجمعة، وكان إبراهيم عليه السَّلام قد اختار في شرعه يوم الجمعة، ومثله نبينا صلى الله عليه وسلم، لكن هؤلاء جعلوا يوم السبت هو يوم طاعتهم، فكانوا يقولون كما ورد عن ابن عباس أن موسى عليه السلام أمرهم بالجمعة وقال لهم : "تفرَّغوا لله في كل سبعة أيام يومًا واحدًا"،- وكان المقصود يوم الجمعة لا تعملوا فيه شيئًا من أعمالكم- فأبوا أن يفعلوا ذلك، وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ فيه من الخلق، وهو يوم السبت، أي يريدون أن يفلسفوا امتناعهم عن الأمر، فيقولون: لا نريد يوم الجمعة، نريد اليوم الذي فرغ فيه من الخلق، يقصدون يوم السبت، فجعل الله تعالى السبت لهم وشدد عليهم فيه.

وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْجُمُعَةَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا فَاخْتَلَفُوا فِيهَا وَهَدَانَا اللَّهُ لَهَا فَالنَّاسُ لَنَا فِيهَا تَبَعٌ غَدًا لِلْيَهُودِ وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى))[٣]، وهذا أمر يجرُّنا لمناقشة أمر آخر وهو **اتِّفاق أهل المِلَل كلّهم** على أنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق العالم في ستة أيام، وبدأ تعالى بالخلق يوم الأحد، وتمَّ يوم الجمعة، فكان يوم السبت كما رأت اليهود يوم فراغ من الخلق، فهم يقولون نحن نوافق ربَّنا في ترك الأعمال، فعيَّنوا يوم السبت لهذا المعنى، والنصارى قالوا: ابتدأ الله الخلق يوم الأحد، فنجعل هذا اليوم عيدًا لنا، **والله عزَّ وجلَّ كتب يوم الجمعة أي شرَّعه**، كتب بمعنى **شرّع**، **وجعله عيدًا لأنَّه يوم كمال الخلق وتمامه**، وهذا شرع نأتمر به وإن لم نعلم علَّته.

لكن المقصود هنا أن **يوم الجمعة للمسلمين** يوم العيد، يوم العبادة، يوم شأن الدين، **ولا** علاقة للمسائل الدنيوية بهذا الشأن، بمعنى: أنَّ اليوم الذي نتَّخذه يوم عبادة في الأسبوع هو يوم الجمعة الذي

[٣] مسند أحمد، تعليق شعيب الأرنؤوط : صحيح وهذا إسناد حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبدالرحمن بن آدم.

يكون مختلفًا عن بقيَّة الأيام من جهة العبادات المشروعة فيه، ففي هذا اليوم -يوم الجمعة العظيم- صلاة الجمعة، يجتمع فيها المسلمون عيدهم، يجتمع في صلاة الجمعة المسلمون، وفي هذا اليوم ساعة ترجى، فهنا الشأن، أما ترتيبات أهل الدنيا من جهة وظائفهم ومن جهة أعمالهم فهذا شأن لا علاقة له بهذا الأمر، أي أنَّ الدين هو أن يكون يوم الجمعة، يوم يُقيم فيه المسلمون شعائر دينيَّة خاصَّة مختلفة عن بقيَّة الأيَّام، ويكونون في فراغ من شأنهم من أجل إقامة هذه الطاعة.

المقصد: جُعل يوم السبت عليهم جزاءًا لهم، وقد شُدِّد عليهم فيه، بمعنى أنَّهم مُنعوا تمامًا من أي عمل، وأُمِروا فقط بالعبادات.

"﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ **فيبيِّن لهم المُحقَّ من المُبطِل، والمُستحِقَّ للثَّواب ممَّن استحقَّ العذاب**".

والذي يظهر في العلاقة بين هذا وما مضى أنَّ الكل من أصحاب المِلَل وأهل الكتب يدَّعون الصِّلة بإبراهيم عليه السلام، ولو نظرت إلى شرعهم الذي يسيرون عليه بعد أن حرَّفوا، فتجدهم مخالفين لشأن إبراهيم عليه السلام، وقد ذُكر هذا في ثنايا السورة، أنَّ كلّ أهل المِلَل يتوجَّهون إلى إبراهيم عليه السلام ويدَّعون أنَّهم يسيرون خَلفَه، وإذا نظرت إلى شرعهم وجدتهم مخالفين.

ختمت السورة بقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾"**أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم، المشتمِل على العِلم النافع والعَمَل الصالح ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده**".

سبيل ربنا مستقيم يشتمل أمرين:

١. تتعلم العلوم النافعة.
٢. ثم تؤمر بالعمل الصالح.

بعد أن تعرف حقائق الأحوال يقال لك: الذي ينفعك أن تعمل هذه الأعمال.

والحكمة تتطلَّب من الإنسان العِلم والخبرة بأحوال الناس، تتعلم الدين وتكون خبيرًا بأحوال الناس، أما من كان بأحوال الناس خبيرًا وبالدِّين جاهلًا فإن هذا سيصِف للنَّاس طريقًا يوافق أهواءهم، لأنَّه خبير بحالهم ليس عالمًا بالشَّرع، فالحكمة لا تأتي إلا من علم بالشرع مع علم بأحوال الناس، فذاك الوقت يضع كل أمر في مكانه ويخاطب الناس على قدر فهمهم وقبولهم وانقيادهم.

وهذه الجملة تطول ولكنه طريق واضح: تعلم الشرع، وخالط الناس، وافهم أحوالهم، ثم ضع كل أمر في موضعه، وهي نعمة يرزقها الله من يشاء.

ومن أهم شروطها: التأنِّي، وعدم العجلة.

فإنَّ قومًا تعلَّموا لكنَّهم تعجَّلوا فما استطاعوا أن يفهموا كيف يعاملون الناس ويضعون الأمر في موطنه.

"ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم" فكيف يُترك التوحيد ويُنتقل إلى غيره؟!.

"وبالأقرب إلى الأذهان والفهم" فإذا أردت أن تشرح أمرا أو تُرشد إلى خير فابدأ بأقربه إلى الخلق.

"وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين". فلا تعرض على الناس المُشكل من الأقوال أو المُشكل من الأمور، وإنما خُص هذا المشكل من الشؤون والأمور، خصها لطلبة العلم، أما عامة الناس فاطرح عليهم مايكون قبوله أتم، ويكون بالرفق واللين.

"فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب".

فإن انقاد بالحكمة وبالعلم وبهذا العرض فالحمد لله، وهذه مرحلة بعد المرحلة الماضية.

"إمَّا بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به".

فأنت تعرض عليه الحق وتبيِّنه بالحكمة، يأتون فيقولون لك: لكن العقل يقول والمنطق وما تعلمناه من بعض العلوم، فنقول: انظر، هذه أوامر الله وهذه الوعود عليها، وهذه النواهي وهذا الزجر والعقوبة التي تترتب عليها، وانظر هؤلاء القوم ماذا حصل لهم لما خالفوا أمر الله، وهؤلاء كيف أصيبوا بالأمراض، وهؤلاء كيف سقط السوق العالمي بسبب الربا وهكذا، فلما تأمره بالحكمة أولًا، وتبيِّن له ما يستجيب، تحوَّل معه إلى الموعظة .

"وإما بذكر ما أعدَّ الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعدَّ للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعو يرى أنَّ ما هو عليه حق. أو كان داعيه إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلًا ونقلًا".

فيُقال له أعرض ما عندك، أنا أبيِّن لك حال ما عندك، فكيف مثلًا أنت تظنّ أنَّ الله يريد منك هذا الدين الذي هو باطل، يعني من كان دينهم السَّب والشَّتم، من كان دينهم فيه تشكيك في الصحابة وفي حفظ الله للدين، وفيه تعدِّي على صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، أنَّهم لا يتعدُّون فقط على من يرفضونهم، إنَّهم حتى يتعدُّون على من يوالونهم وهم لايشعرون.

على كل حال لما يُصِرُّ هذا على دعوة الباطل، أو يرى ماهو عليه حق، فلابدَّ من التحوُّل معه، بالجدال وإظهار الباطل الذي هو عليه بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلًا ونقلًا.

ما معنى أن أجادله بالتي هي أحسن؟ أي بالطُّرق التي تقرِّب له أنَّ ما عليه هو باطل. هو يدور ويبحث عن أُكذُوبات من أجل أن يبطل عليك الحق، فأنت أظهر له الحقّ بأقرب طريق يمكن أن نصل به إلى الحق.

"ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلَّة التي كان يعتقدها، فإنَّه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها" كما نرى في الحوارات المفتوحة، أي ليس المقصود أن ننتصر، المقصود أن أبين الحق أين هو.

"ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

"وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ عَلِم السَّبب الذي أدَّاه إلى الضَّلال، وعَلِم أعماله المترتبة على ضلالته وسيجازيه عليها".

وكم في القديم والحديث تبيَّن لهم أنَّهم على ضلال لمصالح تعود عليهم.

"﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ عَلِم أنَّهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم".

فكل من أراد الحق ولم يرد الهوى يسلك الله به ويفتح له أبواب الخير ويشرح صدره للإيمان.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾

"يقول تعالى –مبيحا للعدل ونادبا للفضل والإحسان– ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل ﴿فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم".

وهو من الأمور المتوقّعة في مثل هذه المجادلات، في مثل هذة المجادلات يتوقّع أن يكون هناك من يخاصم، وهناك من يعتدي، فإذا حصل مثل هذا بعد الجدال هناك عدل، العدل أنك تعاقب من أساء إليك بالقول والفعل.

"﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الشورى: ٤٠، **ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتِّكال على النفس".**

من استيفاء الحقوق لأنَّ هذه الدنيا ليست موطنًا لاستيفاء الحقوق، وغالبًا ما يكون من الصعب تصوُّر الحدّ الذي أقف عنده، الأمر يحتاج إلى صبر، وحقًا كلَّما زاد الزمان بعدًا عن الجيل الأول، كان الأمر يحتاج إلى صبر، والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النَّفس.

إذن يُباح العدل لكن يُندب إلى الفضل، والدعوة سواء كانت بالحكمة والموعظة الحسنة، أو الجدال كلها تحتاج إلى صبر، وهذا الصبر خير لك أيها الصابر، ولا تظنّ أنَّه خير للمصبور عليه خير لك أيها الصابر، وهذا نقوله أولًا لأنفسنا، ونقوله لكل أحد:

صبرك سينفعك أنت، ولما تصبر استعن بالله ولا تتكِّل على نفسك.

فقال: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ هو الذي يعينك عليه ويثبتك".

فصبرك بنفسك منَّة مِنه عليك .

"﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولًا لدعوتك، فإنَّ الحزن لا يجدي عليك شيئًا، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ ﴾ أي: شدَّة وحرج ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين".

ومعنى ذلك، إذا لم يقبلوا اتركهم إلى غيرهم، لا تحزن وتقف عندهم، ولا تكن في ضيق أي شدة وحرج ممَّا يمكرون وغالباً أنهم لابدَّ يمكرون، إذا أعادوك وأرادوا الانتصار لابدَّ أن يمكروا، اطمئنّ فإنَّ مكرهم عائد إليهم، وأهم أمر أن تكون أنت من المتقين المحسنين، يعني إذا مكروا هم أنت لا تبادلهم المكر، ولا تفكِّر فيهم، وتنشغل عن الله، وتنشغل عن غايتك، ويكون المهم عندك أن تنتصر عليهم، وتكتب في هؤلاء تذمّهم، وهؤلاء تشتمهم، وهؤلاء تقلِّل من مكانتهم؛ أتركهم تحوَّل إلى غيرهم من المستجيبين، والله ينفعك بالمستجيبين، وكن من المتقين المحسنين والله مع المتقين المحسنين.

كم هي نعمة أن يكون الله معك بعونه وتوفيقه وتسديده، معك يعينك يوفقك يسددك، فهذا طريق لا تستطيعه أنت وحدك، لا يمكنك أن تصل إلا بعونه وتسديده وتوفيقه.

"والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه".

وهذا الجزاء الأول من الإحسان والمحسنين أيضًا، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه، إذن هذا حال من منَّ الله عليه، وأكرمه بالدعوة إلى الله، **سِر** على طريق الأنبياء، **اجعل** إبراهيم عليه السلام والنبي صلى الله عليه وسلم أمام عينيك، **واستعمل** في عرض الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، **وجادل** من يستحق المجادلة، وربك أعلم بمن ضل عن سبيله وربك أعلم بالمهتدين.

إذا وقع عليك اعتداء لا بأس أن تعتدي، لكن نُدبت إلى الفضل والإحسان والله يحب المحسنين، واصبر وأنت المنتفع من صبرك، ولا تكن في ضيق، لا تحزن ولا تضيق منهم بما يمكرون به فإنَّ مكرهم سيعود إليهم، لكن لاتشتغل بهم واعلم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾.

"نسأل الله أن يجعلنا من المتَّقين المحسنين"

وألقاكم وأنتم في خير حال من الإيمان والتقوى.

اللهم أعنَّا وأعِذنا وسدِّدنا واحفظنا واحفظ إيماننا، اللهم آمين.